

اورداف

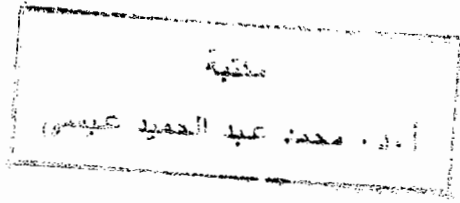
محمد عبد الحميد عيسى

مكتبة

أ.د. محمد عبد الحميد عيسى

مجلة ثقافية يصدرها المعهد الاسباني العربي للثقافة

٥ / ٦ / ٨٢ - ١٩٨٢



رواية متجدة

شهد القرن الأول الهجري انتشار الاسلام في بقاع واسعة من مختلف القارات المعروفة آنذاك وهي آسيا وافريقيا وأوروبا ، وفي فترة زمنية قصيرة تم للعرب المسلمين الاستيلاء على مناطق كثيرة ، فدخلت في حوزاتهم بلاد الشام والعراق وفارس وآسيا الصغرى وأقاليم واسعة من أواسط آسيا ، وكذلك مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والأندلس وأقاليم واسعة من داخل القارة الافريقية ووسط فرنسا وجزر البحر المتوسط . ولم يكن الاستيلاء على هذه المناطق سهلا أو ميسرا ، وإنما تخللته معارك بطولية وتضحيات كبيرة وجهاد كلفهم الأنفس والأموال .

وأرخ المؤرخون لهذه الفتوحات جميعها وكتبوا فيها محددين بالأرقام والتواريخ خطوات الفاتحين وأخبارهم دون لبس أو غموض .

وأكثر هذه الفتوحات تعرضا لكتابات المؤرخين كان في فتح الأندلس حيث دبت كثير من الصفحات والمؤلفات بأخبار هذا الفتح وقصصه وحكاياته ، وما أظن أن مؤرخا عربيا أو اسلاميا - فيما أعلم - الا وقد كتب عن فتح الأندلس مشيرا من قريب أو بعيد الى أحداث هذا الفتح وظروفه .

ومن الغريب ان فتح الاندلس - على الرغم مما سبق قوله - ظل وما زال موضع الخلاف والنقاش بين المؤرخين حتى انه يمكن القول دون مبالغة بعدم كتابة الرواية النهائية لهذا الفتح حتى الآن ، وأن الباب مازال مفتوحا للبحث والاجتهاد .

والخلاف في فتح الأندلس يتمثل في عدة نقاط رئيسية الخصبها فيما يلي :

موقف طارق بن زياد من الفتح ومن أميره موسى بن نصير ، وهل استأذن طارق موسى في القيام بالفتح أم أنه

قام بذلك بمبادرة شخصية منتهزا فرصة لاحت له ؟ وما رد موسى على ذلك ؟

شخصية حاكم سبته ، وهل هو شخص واحد أو أكثر من شخصية ؟ وما دوره في فتح الأندلس ؟

مصير آخر ملوك القوط ، الملك لذريق ، وهل قتل في أول معركة له مع طارق أم أنه نجا من هذه المعركة

وواصل القتال بعد ذلك حتى قتل في مكان آخر ؟

فتح قرطبة من الذي قام به هل هو طارق بن زياد شخصا أم مغيث الرومي ؟

وبالإضافة الى هذه النقاط الشائكة التي لم تجد حلا حتى الآن ، وما زالت موضع الخلاف والنقاش ومحط البحث

والدراسة هناك بعض الظواهر الأخرى التي ارتبطت بفتح الأندلس دون غيره من البلاد التي فتحها المسلمون في هذه

الحقبة التاريخية ، ومن هذه الظواهر (١) كثرة الأموال والغنائم التي حازها المسلمون هناك والأسراف في وصف هذه الغنائم

الى درجة أسطورية .

(٢) وفرة الحكايات والقصص المرتبطة بعملية الفتح سواء قبل الفتح أو بعده وهي روايات تحتاج الى مزيد من الدراسة المتأنية قبل اثباتها أو رفضها .

وأنوه منذ البداية أنني لأقصد بمقالي هذه تبيان الحقيقة ، أو تقديم القول الفصل وإنما فقط أحاول أن أبلور هذه النقاط لعلها تجد من أفاضل علمائنا وباحثينا من رجال الأندلس جهدا موازيا لما يبذله المستشرقون في هذا المجال من أجل توضيح الحقيقة التاريخية وجلائها .

ونتناول فيما يلي أهم الآراء المتباينة في هذه القضية : -

نقطة الخلاف الكبرى بين المؤرخين تتركز حول موقف طارق بن زياد من أميره موسى بن نصير في قضية القيام بفتح الأندلس ، وهناك تيارات حول هذه المسألة أولها ماجاء في كتاب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » وذكر أمرائها من :

ان موسى بن نصير هو الذي التقى بحاكم سبتة « جوليان » واتفق معه على القيام بفتح الأندلس وكتب بذلك الى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، فكتب اليه ان خضها بالسرايا حتى تختبر ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فكتب اليه موسى انه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب اليه : وان كان فاختبره بالسرايا فبعث رجلا من مواليه يقال له طريف ويكنى بأبي زرعة في أربعاء ، ومعهم مائة فارس فسار في أربع مراكب حتى نزل بمراكبه جزيرة يقال لها : جزيرة الأندلس ، التي هي معبر مراكبهم ، ودار صناعتهم ، يقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لنزوله فيها . فأقام حتى تنام اليه أصحابه ثم نهض حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيها لم ير موسى مثله ولا أصحابه ومالا جسيما رجع سالما وذلك في رمضان سنة احدى وتسعين .

فلما رأى ذلك ، تسرعوا الى الدخول ، فدعا موسى مولى له ، كان على مقدماته يقال له : طارق بن زياد ، وكان فارسا همدانيا ، ويقال انه ليس بمولاه ، وانه من موالى صدف ، فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالي ، ليس فيهم عرب الا قليل ، فدخل في تلك الأربع السفن ، لاصناعة لهم غيرها ، وذلك في سنة اثنتين وتسعين .

فاختلفت السفن بالرجال والخيول ، وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله والمراكب تختلف حتى توافي جميع أصحابه . وكان الملك - ملك اسبانيا - لما بلغته غارة طريف ، أعظم ذلك ، وكان غائبا قد غزا بنبلونة ، فأقبل منها وقد دخل طارق ، فجمع له جمعا ، يقال : انه مائة الف أو شبه ذلك .

فلما بلغ الى طارق كتب الى موسى يستمده ويخبره ان قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وانه قد زحف اليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به .

وكان موسى مذوجه طارقا أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل اليه خمسة آلاف ، فتوافي المسلمون بالأندلس ، عند طارق اثنا عشر الفا ، وقد أصابوا سبيها كثيرا ورفيعا ، ومعهم بليان في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتحسس لهم الأخبار (١) .

ويستطرد مؤلف أخبار مجموعة في ذكر المعركة بين الطرفين ، وانهزام أبناء المك غيطشة ثم وقوع الدائرة على الملك لذريق واختفاء أثر هذا المك والعثور على خفه في الطين ثم ينتقل بعد ذلك الى جهود طارق في فتح بعض المدن الأندلسية .

ويوافق ابن الكردوبوس هذه الرواية في معالمها العامة وان اخبر ان طارقا « جاز بمراكبه الى جبل فأرسي فيه فسمى طارق باسمه الى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطى كان عزم على النزول فيه الى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا الى موضع وعرفوطاه بالمجادف وبراذغ الدواب ، ونزل منه في البر وهم

(١) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الابياري ، طبعة القاهرة ، ١٩٨١ . دار الكتاب اللبناني ص ١٦-١٧ .

لا يعلمون فنس غارة عليهم وأوقع بهم غنمهم ، ورحل نحو قرطبة بعد أن احرق المراكب وقال لأصحابه قاتلوا أو موتوا « (٢) .

أما المقرئ فانه يورد مختصرا لأخبار الفتح حسب مختلف الروايات وكلها تجمع على أن موسى بن نصير هو الذي التقى بحاكم سبته ثم هو الذي ندب طارقا للقيام بفتح الأندلس (٣) وأن أضاف نقلا عن ابن خلدون معلومة جديدة يخالف فيها كل الآراء السابقة وهي خاصة بغزوة طريف فهو لا يجعلها سابقة لقيام طارق بالغزو وإنما حينما جاز طارق البحر وكان معه حوالي عشرة آلاف « فصيرهم عسكريين أحدهما على نفسه ونزل جبل الفتح ، فسمي جبل طارق به ، والآخر عليه طريف من مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن » (٤) .

ويوافق هذه الجلة من المؤرخين القدامى مجموعة أخرى من المحدثين في أن الحملة قد تمت بعلم موسى بن نصير وتخطيطه وبالموافقة الصريحة للوليد عبد المك ، لكن هذه الصفة من المؤرخين تقف عاجزة عن تفسير موقف موسى من طارق بعد عبور الأول الى الأندلس وقيامه باهانة طارق ، ولجأت كلها الى إرجاع ذلك الموقف الى عوامل الغيرة التي تحركت في نفس موسى بن نصير نتيجة نجاح طارق في مثل هذا الفتح العظيم ، وهناك من شكك في هذا الموقف أصلا رافضاً أن يكون القائد الفذ موسى بن نصير من ذلك النوع الذي يمكن يترك كل عوامل الأيمان والاخلاص للإسلام من أجل نوازع الغيرة ويتسبب في إيذاء رجل مثل طارق بن زياد الذي جاهد وكافح حتى حقق للمسلمين نصرا عزيزا غالبا وعلى أساس أن هذين الرجلين وغيرهما - من المسؤولين والجند سواء - كانوا يسعون لخدمة الإسلام ورفع رايته وهم على استعداد للبذل والتضحية التي عليها يحرسون (٥) .

أما التيار الذي ذهب اليه أيضا مجموعة من المؤرخين القدامى ، وكان محور مقال عميق للاستاذ الدكتور حسين مؤنس نشره في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد (العدد ١٨ سنة ١٩٧٥) بعنوان « رواية جديدة لفتح الأندلس » ، فانه يتحدث عن أن طارقا بن زياد قد عبر الى الأندلس دون إذن موسى بن نصير منتهزا لفرصة أتاحتها له خوليان حاكم سبته ، ونجح في هزيمة الملك لذريق ، وبعد ذلك كتب الى موسى يخبره بالفتح ، فغضب موسى ، وكتب اليه يعنفه ويأمره بالتوقف ، وراسل الخليفة الوليد ناسبا هذا الفتح الى نفسه .

واقدم المؤرخين الذين تحدثوا في هذه النظرية - على ما وصل اليها - هو النص الذي نشر في تونس بتحقيق الاستاذ المنجي الكعبي منسوباً الى ابراهيم بن الرقيق المتوفى في حدود سنة ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م ، وتولى ديوان الانشاء لنصير الدولة باديس من أبي الفتح المنصور (٣٨٦-٤٠٦/٩٩٦-١٠١٥ م) ثالث الأمراء من بيت بني زيري الصنهاجيين في افريقية ثم لابنه المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣/١٠١٥-١٠٦٢) .

وعلى الرغم من الظلال التي القاها الأستاذ محمد الطالبي على صحة نسبة هذا النص الى ابن الرقيق وما تناوله الاستاذ الدكتور حسين مؤنس من قضية الشك واليقين في صحة النسبة ، الا انه تناوله على انه « نص فريد في باب » (٦) ويؤكد انها تقدم لنا شيئا جديدا فعلا ، وأنها تختلف عن كل ما لدينا في أكثر من موضع ، حتى يصل الى القول : « وهذا الاختلاف يدعونا الى أن نعيد النظر في الكثير مما لدينا من المعلومات عن فتح هذا القطر الكبير »

٥ (عبد الرحمن الحجي : التاريخ الاندلسي ، دمشق ١٩٧٦ م ص ٨٥-٩٠ .

٦ (حسين مؤنس : فتح المسلمين للأندلس ، المقال المشار اليه ص ٩٣ .

٢ (ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، تحقيق د. مختار العبادي ، المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد سنة ١٩٧١ ص ٤٥-٤٦ .

٣ (المقرئ : نفع الطيب ج١ ص ٢٢٩-٢٣٢ تحقيق احسان عباس- بيروت ١٩٦٨ م .

٤ (المقرئ : المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٧) ، ولقد سبق لي الرد على هذه النقطة بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية (٨) ، ويورد النص المذكور مايلي :

« . . . ثم استعمل موسى بن نصير على طنجة طارق بن زياد مولاه ، وتركه بها في سبعة وعشرين رجلا من العرب واثنى عشر ألف فارس وهي العدة التي جعلها عليهم حسان بن النعمان ، وكانوا دخلوا الاسلام ، وحسن اسلامهم فتركهم موسى وانصرف بعسكره من العرب خاصة ، وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلموا البرابر القرآن ويفقهوهم في الدين ، ثم مضى الى افريقية . . . » .

قال : وتحامل أصحاب طارق بن زياد ، عامل موسى بن نصير بطنجة ، على أهل البلد ، وأساءوا فيها ، وجاروا عليهم ، فكتبوا الى أهل الأندلس يعرفونهم بما يلقونه من جهة البربر وسوء سيرتهم .

فكان طارق يوما بطنجة اذ طلعت مراكب ، فأمكن لها المسلمون فلما أرست خرجوا اليها ، وأنزلوا أهلها قالوا : انا اليكم جئنا عامرين ، فاذا هم يعظمون غلاما حدثا منهم يقال له أليان ، فقال له طارق : ماجاء بك ؟ فقال : أنا ابن ملك الأندلس وليس بينك وبينها الا هذا الزقاق ، وأشار الى جبالها يريه اياها ، قال طارق : ماجاء بك ؟ قال له : ان ابي مات . ووثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق ، وبلغني أمركم ، وجئت اليكم أدعوكم اليها وأكون دليلكم عليها .

ومع طارق اثني عشر ألفا من البربر ، فعزم طارق على غزو الأندلس واستنفر البربر ، فجعل أليان يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف الى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون الا انها تختلف بمثل ماكانت تختلف به من معاشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجا فوجا الى الأندلس . وقد تقدم أليان الى أصحاب المراكب الا يعلموا بهم ، وقال لقومه : اني توثقت لكم ، فاعلموا انها دولة العرب ، وهم يملكون الأندلس ، ودعاهم الى ان يأخذوا نصيبهم منها ، فأعجبهم ذلك ، ورغبوا فيه ، وكتب لهم طارق بالأمان على أنفسهم وذرايرهم وأموالهم . فلما لم يبق لهم الا فوج واحد ، ركب طارق ومن بقي معه ، فجاز الى أصحابه ، فنزل بهم جبلا من جبال الاندلس ، حريزا منيعا فسمى ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق فلا يعلم الا به - وموسى بن نصير لا يعلم شيئا من هذا » (٩) .

ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن المعركة ، وتنتائجها ، وعن دخول طارق بن زياد الى قرطبة حتى يصل الى القول :

وبلغ موسى بن نصير ان طارقا بن زياد فتح الاندلس ودخلها فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة ، فغضب غضباً شديداً ، وكتب اليه يعنفه اذ دخلها بغير أمره ، وأمره الا يجاوز قرطبة وأمر موسى الناس ورحل معه وجوه العرب ، وكان مخرجه في رجب سنة ٩٣ هـ « (١٠) .

ويؤكد الحميدي المتوفي سنة ٤٨٨ هـ هذه الرواية حيث يقول :

« فأما أول افتتاحها ففي سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، في القرن الثاني الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، واما الذي تولى فتحها ، وكان أمير الجيش السابق اليها فطارق بن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان واليا على طنجة : مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان في اقصى المغرب ، بينها وبين الاندلس فيما يقابلها خليج من البحر يعرف بالزقاق وبالمجاز ؟ رتبة موسى بن نصير أمير القيروان . وقيل ان مروان بن موسى خلف طارق هناك على العساكر ، وانصرف الى ابيه لأمر عرض له ، فركب طارق البحر الى الاندلس من جهة مجاز الخضراء منتهزا

(٩) انظر النص في مقالة الدكتور مؤنس المشار اليها في الصفحات ١٠٠-١٠٥ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٧) حسين مؤنس : المصدر السابق ص ٩٨ .

(٨) محمد عبد الحميد عيسى : عرض للكتب والابحاث الجديدة ، بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية - بمدير ، العدد ١٩ لعام ١٩٧٩ الصفحات ١٤٦-١٤٤ .

لفرصة أمكنته ، فدخلها وأمن فيها ، واستظهر على العدو بها ، وكتب الى موسى بن نصير بغلبته على ماغلب عليه من الاندلس وفتحها وماحصل له من الغنائم ، فحسده على الانفراد بذلك ، وكتب الى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح ، وينسبه الى نفسه ، وكتب الى طارق يتوعده بغير اذنه ، ويأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، وخرج متوجها الى الاندلس ، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين « (١١) » .

ان الحيرة لتستبد بالباحثين أمام هذه النصوص الغير قابلة للتأويل وتزداد بصورة شديدة عند طرح التساؤل لماذا يحدث ذلك في فتح الاندلس دون غيره من بقية أقاليم العالم الإسلامي التي تم فتحها قبل الاندلس او خلال الفترة المعاصرة له ؟ وليس ذلك فحسب ، بل ان ذلك يدفعني للعودة الى مناقشة العبارة التي اطلقها ذوالوزارتين لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦/٧١٢ هـ - ١٣٧٤/١٣١٣ م) حين تعرض لفتح الاندلس قائلا :

«وحدث الفتح ، وما من الله به على الاسلام من المنح ، وأخبار ما أفاد من الخير موسى بن نصير ، وكتب من جهاد لطارق بن زياد ، محلول قصاصي وأوراق ، وحدث أقوال وإشراق ، وأعداد وإبراق ، وعظم امتشاش ، وآلة معلقة في دكان قشاش » (١٢) .

لماذا اطلق ابن الخطيب هذه العبارة الحاسمة ؟ هل فعلا لوفرة ماكتب عن هذه القضية انه لم يعد هناك مجال لكي يطرس فيه بقلمه بضعة صفحات او ينقل اليها عدة روايات ؟ ان المطالع لمؤلفات ابن الخطيب يجد انه لا يتردد في الترجمة الشخصية الواحدة اكثر من مرة في اكثر من كتاب ، كما انه يردد لترجمات سبقت الاشارة اليها في كتب سابقة دون ان نجد في التكرار غضاظة أو مانعا من العودة لنفس الشخصية أو رواية نفس القصة ، اذن ماذا ؟

هل يمكن القول بأن الخطيب قد رأى امامه هذا الكم الهائل من الروايات والقصص المتضاربة أحيانا ، والمتوازية أحيانا أخرى والمتكررة في أحيان كثيرة ، فلم يحاول التوفيق بينها ، أو لم يجد أمامه الوقت الكافي لتحليلها والوصول الى القول الفصل فيها فضرب بها جميعا عرض الحائط ، وتوقف عن الخوض فيها ، مطلقا عبارته تلك ليتهرب من الموقف ؟ أم أنه لم يكن بين يديه من المصادر والمراجع مايساعده على التوصل الى الحقيقة فترك ذلك بحجة كثرة الكلام فيه ؟ لست أدري

ليست هذه النقطة هي قضية الخلاف الوحيدة في هذا الفتح ، وانما كما قلت هناك غيرها كثير .

وضع طارق بن زياد ومكانته :

اختلفت المصادر الاصلية حول الوضع الذي كان فيه طارق بن زياد ومكانته ، فجعله الحميدي واليا على طنجة أو نائبا عن واليها مروان بن موسى بن نصير ونص ابن الرقيق المشار اليه يجعله عاملا عليها من قبل موسى بن نصير والى ذلك ايضا يمضي ابن خلدون (١٣) اما ابن عبد الحكم (١٨٧-٢٥٧ هـ / ٨٠٣-٨٧١ م) ، فانه على الرغم من تأكيده ان طارقا كان واليا على طنجة نيابة عن موسى بن نصير الا انه يورد لنا نصا مختلفا عن ماسبق يقول فيه ان طارقا كان مقيا بتلمسين - من بلاد الجزائر الحالية - وهناك حدث اللقاء بينه وبين يليان حاكم سبته وتم الاتفاق على دخول العرب الى الاندلس ، يقول ابن عبد الحكم حين حديثه عن يليان : فبعث الى طارق - أي يليان - أنني مدخلك الاندلس ، وطارق يومئذ بتلمسن ، وموسى بن نصير بالقروان ، فقال طارق : فاني لا أطمئن اليك ، حتى تبعث الى برهينة « فبعث اليه بابنتيه ، ولم يكن له ولد غيرهما فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما ، ثم خرج طارق الى يليان وهو بسبته على المجاز ، ففرح به حين قدم عليه وقال له : « انا مدخلك الأندلس » وكان فيما بين المجازين جبل يقال له اليوم جبل طارق

(١١) الحميدي : جذوة المقتبس ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ ص ٤-٣ .
(١٢) المقرئ : نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس - بيروت ١٩٦٨
(١٣) المقرئ : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٢ .

فيا بين سبته والاندلس ، فلما أسمى جاء يليان بالمرائب فحملة فيها الى ذلك المجاز فاكمن فيه نهاره ، فلما أسمى رد المراكب الى من بقي من أصحابه ، فحملوا اليه حتى لم يبق منهم أحد .

ويتحدث بعد ذلك عن انتصار طارق على القوط ، حتى يصل الى القول : وكتب الى موسى بن نصير بفتح الاندلس ، وما أصاب من الغنائم فكتب موسى الى الوليد بن عبد الملك يعلمه بذلك ونحله الى نفسه وكتب موسى الى طارق الا يتجاوز قرطبة حتى يقدم عليه وشمته شتما قبيحا (١٤) .

شخصية حاكم سبته :

تباينت المصادر العربية في تناولها لهذه الشخصية وفي الدور الذي قامت به ، ودوافعها الى ذلك ، وأجمعت كلها على اسناد دور أساسي لهذه الشخصية في عملية فتح الأندلس . ويقول عنها الدكتور حسين مؤنس بأن « المراجع قد اختلفت حول يليان هذا اختلافا عظيما فبعضها يزعم انه قوطي وبعضها يزعم انه رومي ، وبعضها الآخر يزعم انه بربري من عارة ، لكنها تتفق جميعا على انه كان صاحب سبته وما حواليتها ، وأن سلطانه كان عظيما على من كان يجاوره من البربر ، وأن صلات من الود كانت تربطه بلذريق ملك الأندلس » (١٥) .

ثم يستطرد بعد ذلك مستعرضا آراء دوزي وكوديرا وسافدرا الى أن يخلص الى القول بأنه كان حاكما بيزنطيا على اقليم مرطانية الطنجية تقطعت به الصلات مع بيزنطة ومن ثم عقد صلات قوية مع البربر حتى ظنه الناس بربريا . وبالإضافة الى ذلك فانه يورد آراء المؤرخين القدامى مثل ابن خلدون ، وابن عذارى وابن الأثير (١٦) .

ورد اسم حاكم سبته على أنه « يوليان » في كل من أخبار مجموعة وعند ابن الحكم وابن الشباط ، وسائرهم على ذلك معظم المؤرخين لكن القطعة المنشورة نسبا الى ابن الرقيق جعلته « اليان » وكتب الاسم في كثير من المؤلفات الحديثة على أنه « جوليان » ولم نعدم الآن من يكتب الاسم « خوليان » .

رواية غريبة :

أجمعت كل المصادر القديمة على أن يليان كان حاكما لمدينة سبته فيما عدا ذلك النص المشار اليه فانه يقول : « فكان طارق يوماً بطنجة اذ طلعت مركب ، فأكمن لها المسلمون فلما أرسى خرجوا اليها ، وأنزلوا أهلها ، فقال أهلها : انا اليكم جننا عامدين ، فإذا هم يعظمون غلاما حدثا منهم يقال لهم أليان ، فقال له طارق : ما جاء بك ؟ فقال أنا ابن ملك الأندلس وليس بينك وبينها الا هذا الرقاق وأشار الى جبالها يريه أياها . قال طارق : ما جاء بك ؟ قال له : ان ابي مات . ووثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق وبلغني أمركم ، وجئت اليكم أدعوكم اليها ، وأكون دليلكم عليها » (١٧) .

ويثير هذا النص آراء لم يسبق القول بها في أي مصدر آخر ، فهو لم يقتصر على تغيير الاسم فحسب ، وإنما جعله ابنا من أبناء ملك القوط المخلوع ، الملك غطيشة . ويقوم الدكتور مؤنس بدراسة هذه القضية مؤكدا بأننا لانعرف أحدا من أبناء غطيشة يتسمى بهذا الاسم أو قريبا منه ، ثم يصل الى استنتاج مفاده انه من الممكن ان يكون « اليان » هذا ابنا لـ « يليان » واعتماد على هذا النص فانه يقول : ان يليان الأول صاحب عقبة بن نافع كان من أتباع غطيشة واصحابه ، ولهذا اجتهد في صرف عقبة عن غزو الأندلس ، ونصحته بالاتجاه الى الجنوب ومواصلة غزو البربر ، وأصبح بعد ذلك حليفا

(١٤) ابن عبد الحكم : فتوح افرقية والاندلس ، تحقيق عبد الله انيس

(١٦) حسين مؤنس المصدر السابق ص ٥٣ .

(١٧) انظر النص في مانشره الدكتور حسين مؤنس في مقاله المشار اليها

الطباع ، بيروت ١٩٦٤ ص ٧٢-٧٦ .

بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ص ١٠٢ .

(١٥) حسين مؤنس : فجر الاندلس - القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٥٢-٥٣ .

للمسلمين معاهدا لهم . فلما وثب لذريق بغيطة وأولاده وأنصاره أسرع هذا الشاب « يليان » الذي نفترض انه ابن يليان الكبير الى العرب وحرصهم على غزو الاندلس ، واشترك معهم في ذلك انتقاما من لذريق « (١٨) » .

مفاجأة غريبة :

وأغرب المصادفات التي واجهتني اثناء دراستي لهذا الموضوع هو ماورد في رواية أدبية بعنوان « يوليان في الاندلس » كتبها الاستاذ : احمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني وكيل فرع بنك التسليف الزراعي المصري وصدرت في مايو ١٩٣٩ م .

تدور هذه الرواية عن الأندلس قبل الفتح وخاصة ماكان يجري في الأسرة الحاكمة ، وتجعل الرواية من « جوليان » حاكم سبتة أخا شقيقا للملك غيطشة تعرض لظروف قاسية ترتب عليها نفيه الى سبتة نتيجة اقدمه على زواج لم تعترف به الأسرة المالكة . وكانت ثمرة هذا الزواج غير الشرعي ابنا اسمه الرواية « درمس » ولد في نفس الليلة التي رزق فيها الملك غيطشة ابنا كان اسمه « يليان » وبما أن جوليان الكبير كان يتوقع مصيراً سيئاً بسبب انتقال ولاية العهد الى ابن الملك غيطشة وحرمانه شخصياً من ذلك . علاوة على خشيته على مصير ولده الذي لا يعلم ميلاده أحد . فقام في غيبة الوصيفات بسرقة ابن الملك غيطشة ووضع مكانة ابنه . وأرسل ابن غيطشة الى برشلونة تحت اسم « درمس » وهو اسم ابنه هو .

وتدور الصراعات والمؤامرات في القصر الملكي ، ويتم ابعاد « جوليان » الى سبتة ليقيم هناك ، ويسقط العرش من تحت اقدام الملك غيطشة ، ويستولي لذريق على الملك ، ويهرب أولاد غيطشة « المند وأرطباش ومعها يليان على أنه أخاهم الثالث ، الى سبتة وقيمون مع عمهم هناك بعيدا عن اضطهاد لذريق .

ثم تدور أحداث الرواية المذكورة بالطفل « درمس » الابن الحقيقي ملك الأندلس الملك غيطشة ، فتلقي به في معتزك الحياة ، وينتقل من مكان لآخر حتى يصل الى المغرب العربي ويتعرف هناك على العرب وخاصة على طارق بن زياد ، ويحبه محبة كبيرة وقيم في ضيافة طارق عدة أيام ، ولمس عن قرب صفات العرب الحميدة وسجاياهم الطيبة ويشتاك لو كان هؤلاء هم حكام اسبانيا ، بدلا من الظلمة الذين يتولون الأمور هناك .

وتلقى المقادير بعد ذلك بدرمس على اعتاب قصر عمه جوليان في سبتة دون أن يعرف انه عمه أوصله القريبى التي تربطه به ، بعد أن كان قد أشرف على الغرق .

أما جوليان فانه بعد أن كنتم سرفعلته سنوات طويلة وكان قد أصبح متقدما في السن ولم يعد يقوى على الكتمان فانه باح بالسر لزوجه وابنه الحقيقي الذي كان يعيش معه على انه ابن اخيه ، ثم أخبر ولدي أخيه الموند وأرطباش ، وحين كان حزنها شديدا على اخيهما الغائب اذا بالامواج تلقي به على شاطئ القصر ، ويتعرف عليه جوليان بواسطة صليب كان قد علقه في صدره قبل أن يرسله طفلا الى برشلونة .

وفي مشهد مؤثر يعترف جوليان ليليان بما قام به حين خطفه وأرسله الى برشلونة ووضع مكانه ابنه ، وأعلمه أنه ليس في الحقيقة الا ابن ملك الاندلس الراحل غيطشة وهنا تطلع يليان باعتباره ولي العهد الشرعي الذي غصب حقه الى مساعدة العرب في الاقتصاص من لذريق ووضع اموره على ذلك وتقول الرواية بالنص :

« ثم انه - أي يليان - دبر خطته مع الموند وأرطباش ، وابن عمهم درمس ، واتفقوا على أن ينضموا لجيش لذريق ، ويظهروا له الأخلاص والتفاني في حروب أعدائه حتى يثق تمام الثقة وأن يجاهروا عمهم بالعداء حتى تتم الحيلة ، كما أنه أوصاهم باليقظة والحذر من غدره الى ان تحين الفرصة ، ولم يخبرهم عن بقية خطته ، فتم له ماأراد من هذه الناحية وكان في

عزمه أن يمهّد للعرب في حكم الأندلس لانهم أجدر الناس به . . . وكان يمهّد الطريق سرا فما أحسنت خطته التي رسمها نجحت في خطواتها الأولى ، وصار السفر اليهم ميسورا إذ أعد جملة سفن لتتقلهم من طنجة الى الجزيرة الخضراء سافر بنفسه لمقابلة صديقه طارق ، فلما وصل اليه أكرم وفادته ، ولقيه لقاء كريما « (١٩) .

ثم تتحدث الرواية بعد ذلك عن مدار بين يليان وطارق ، وتشجيع يليان لطارق على غزو الأندلس ، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك كما هو معروف في الوقائع التاريخية .

قرأت هذه الرواية ، واستوقفتني مسار هذه الأحداث التي ركبها المؤلف « احمد عبد المنعم الحلواني » ونشرها في منتصف عام ١٩٣٩ ، وتطابق هذه الوقائع تماما مع ما نشر في الرواية المنسوبة الى ابراهيم الرقيق والتي ظهرت في تونس سنة ١٩٦٨ ، وعلق عليها الدكتور مؤنس بمجلة المعهد المصري بمديرية سنة ١٩٧٥ .

هناك ثلاثون سنة كاملة سبق بها كاتب هذه الرواية في ابراز تصوره لحقيقة الفرق بين « جوليان » و « يليان » أو بين « يليان » و « اليان » قبل ان تظهر مخطوطة تونس وتتحدث عن « حدث يعظمونه » هو « ابن ملك الاندلس » ترى من أين جاء الكاتب بهذه المعلومات ؟ انه يؤكد في المقدمة « انه جعل ادوار قصته تطوف حوادث هذه الأيام يقصد أيام فتح الاندلس - فوجدت روايات متعددة عن حوادث فيها اختلاف كبير » (٢٠) .

هل كانت تحت يده روايات أو مصادر لم تصل إلينا ؟ ان ذلك يحيلني مرة أخرى على عبارة ابن الخطيب الشهيرة عن فتح الأندلس لماذا اطلقها وأرسلها هل لوفرة المصادر أم لضآلتها وندرتها . . .

دوافع خليان :

وتختلف المراجع أيضا في الدواعي والأسباب الدافعة لكي يقوم خليان بدعوة العرب الى دخول اسبانيا ، ونقصد بذلك خوليان « صاحب سبته » ، وهناك تخيلات ثلاث لدوافع ما قام به هذا الحاكم :

أ - انه ربما لم يكن أكثر من مجرد حليف لآل غيطشة الذين بطش بهم الملك لذريق واضطروهم الى الهرب هنا وهناك ولجأ بعضهم بالطبع الى سبته حيث يحكم أحد انصارهم وهو لذريق ، وبالطبع فان خوليان تخوف هو أيضا من حكم لذريق ، وتخوف عاقبته فعمل على مساعدة آل غيطشة بدعوة العرب لدخول الاندلس ، وفي ذلك محاولة لاستعادتهم سلطتهم التي غصبها لذريق ، ولا يغيب عن بالنا بالطبع انه من المحتمل ان عبور العرب الى الاندلس كان بقصد المساعدة لآل غيطشة فحسب دون التفكير في الاستقرار الدائم في الاندلس (٢١) .

ب - ويرى ابن الكردبوس أن « يليان » ، صاحب سبته كان من خواص الملك لذريق ووجه رجاله ، فأنفذ ابنته اليه في طليطلة ، فكانت في قصره ، وكان يزوره جليان مرة في العام في أغشت - أغسطس - بهدايا وألطف وطبور للصيد وكانت بنته من أجل النساء ، فوقعت عين لذريق عليها وهو سكران ، فواقعها وافتضها ، فلما صحا وأخبر بذلك ندم وأمر بكتن ذلك ، وأن تمنع الصبية ابنة جليان من أن تخلو بأحد فتحده أو تكتب معه كتابا الى أبيها ، فلما لم تتمكن الصبية من أن تخلو بأحد فتحده أو تكتب معه كتابا الى أبيها . فلما لم تتمكن الصبية من شيء ، أنفذت الى أبيها هدية عظيمة وفي جملتها بيضة مفسودة فلما رآها جوليان أنكرها وعلم أن ابنته أفسدت ، فجاز اليه في خلاف الوقت المعهود وذلك في شهر يناير ، فقال لذريق ، ما جاء بك في هذا الشتاء الحاد ؟ قال له جئت لابنتي فان أمها مريضة وتخاف المنية فقالت لي لا بد ان أرى ابنتي وأشفى منها . فقال له : وهل نظرت لنا في طيور ؟ فقال قد نظرت لك في صيد طيور لم ير مثلها قط ؟

(٢١) انظر هذه الآراء عند د . حسين مؤنس ، فتح الأندلس ص ٥٢-٦٧ .

(١٩) أحمد الحلواني : يليان في الاندلس ، القاهرة ١٩٣٩ ص ١٨٦ .
(٢٠) الحلواني : نفس المصدر ص ٩ .

وأنا أتيت بها عن قريب ان شاء الله . يعني بذلك العرب . فأخذ ابنته وانصرف ومضى من فوره الى افريقية الى الأمير موسى بن نصير . . . » (٢٢) .

وتجمع كافة المصادر على الرواية لهذه القصة وان تنوعت في الاسلوب والعرض ولا نعدم من بين المؤرخين المحدثين ، الاسبان والعرب ، من ينقيها وينسبها الى خيال الوراثة العرب ، وخاصة ان لها أكثر من شبه مواضع أخرى من الاقاليم الاسبانية .

ج - اما المجموعة الثالثة من دواعي خيلان - عند بعض المؤرخين - فانها تجمع بين سابقيتها ، وتحدث عن أن أبناء المك غيطشة وانصاره كانوا قد هربوا وتشتتوا في كل مكان ، ومنهم من لجأ الى خوليان - حاكم سبته - مما تسبب في تدهور العلاقات بينه وبين الملك لذريق ، ثم كانت حادثة ابنته فزادت العلاقات سوءا وتدهورا حتى صمم خوليان على الاستعانة بالعرب للقضاء على لذريق ، ومن ثم كان تصميمه على ادخال العرب الى الاندلس .

والغريب ان عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » يقص علينا رواية مختلفة تؤيد الفرض القائل بأن طارقا عبر الاندلس دون رأي موسى ابن نصير منتهزا لفرصة أمكنته ، وهي خلو منطقة الجزيرة الخضراء ومن ثم فهو لا يتحدث عن خوليان « صاحب سبته » وإنما يتحدث عن عالج « صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها » ثم يحكى نفس قصة الاغتصاب على انها وقعت لابنة « صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها » . يقول نص المراكشي : « وقيل ان مروان بن موسى بن نصير ، خلف طارقا هناك على العساكر وانصرف الى ابيه لأمر عرض له ، فركب طارق البحر الى الاندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزا لفرصة أمكنته ، وذلك ان الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم ، خطب الى الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعده فلما بلغه ذلك جمع جموعا عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقا خلوتك الجهة ، فهذه الفرصة التي انتهزها . . . » (٢٣) .

معركة وادي لكّة :

اذا ماتبينا وفرة الآراء وكثرتها حول أسباب الفتح ، وشخصياته ، فانه من الطبيعي ان تحظى المعركة الكبرى التي ترتب عليها دخول الأندلس ضمن الدولة الاسلامية ، بنصيب وافر من اختلاف الآراء حول مكانها ومسير ابطالها ، وخاصة الملك القوطي لذريق ، وهل قتل في أول لقاء مع طارق بن زياد أم أنه تمكن من النجاة حتى قتل في لقاء آخر ؟ ولست أجد داعيا لمناقشة كل هذه القضايا حيث انها استوعبت تماما على يد اساتذة أفاضل ويكفي الاحالة على الدراستين العميقتين لكل من الاستاذ أحمد مختار العبادي (٢٤) والاستاذ الدكتور حسين مؤنس (٢٥) .

فتح قرطبة :

اختلفت الآراء أيضا حول فتح قرطبة ومن الذي فتحها ، وعن وضع المدينة قبل الفتح والتيارات الجارية عن هذه النقاط تتباين بشدة وان كان وجه التباين يمكن تفسيره بحيث يلغي هذا التباين ، ولنبداً بالقضية الأولى ، قضية فتح المدينة :

السابعة ص ١٩-٢٠ .
٢٤ (العبادي : مقدمة تحقيق نص ابن الكردوبس ، المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرية ١٩٧١ .
٢٥ (حسين مؤنس : رواية جديدة عن فتح الاندلس ، مجلة المعهد المصري بمديرية العدد ١٨ سنة ١٩٧٥ .

٢٢ (ابن الكردوبس : تاريخ الاندلس ، تحقيق مختار العبادي ، نشر المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرية ١٩٧١ ، ص ٤٣-٤٤ .
المصري : نفع الطيب ج١ ص ٢٥١-٢٥٢ .
٢٣ (المراكشي : المعجب ، تحقيق سعيد العريان ، الدار البيضاء ، الطبعة

يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة ، بعد حديثه عن معركة الفتح ، بأن يليان طلب من طارق بن زياد بعد انتصاره في المعركة ، أن يفرق جيوشه في انحاء الأندلس ، وأن يتجه هو - أي طارق - الى طليطلة ، فبعث طارق مغيثا الرومي الى قرطبة في سبعمائة فارس وتمكن مغيث بعد ذلك من احتلال المدينة ، بعد مقاومة شديدة (٢٦) .

ويتبع هذا القول كثير من المؤرخين ، حتى بدا وكأنه الحقيقة الكاملة النهائية وإذا بالمقالة التي نشرها الدكتور حسين مؤنس عن قصة جديدة لفتح الاندلس ، تعطي تصورا جديدا لفتح المدينة على يد طارق بن زياد ، حين يقول : ودخل طارق قرطبة ، فأصاب فيها من الدر والياقوت والذهب والفضة مالم يجتمع مثله قط ، وأصاب من الحرير . . . » (٢٧) .

ولقد دفعني ذلك الى البحث في المراجع الأصلية مرة أخرى لأرى صحة هذا الخبر وكانت المفاجأة ان كثرة لابس بها من من هذه المراجع تشير الى هذه القضية مؤيدة قيام طارق بفتح المدينة ، فعلاوة على النص المشار اليه عاليه والمنسوب الى ابن الرقيق نجد المراكشي أيضا يقول :

« . . . ثم دخل طارق هذا الى الاندلس وأمعن فيها ، واستظهر على العدو بها وكتب الى موسى بن نصير بخبر الفتح وغلبته على ماغلب عليه من بلاد الاندلس ، وماحصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب الى الوليد بن الوليد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه الى نفسه ، وكتب الى طارق يتوعده ، اذ دخلها بغير اذنه . . . ثم يصل الى القول - ووصل - اي موسى من جهة المجاز الى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة ، دار المملكة ، وقتل لذريق الملك ، والي مثل هذا سبق الحميدي وتحدث عن فتح طارق شخصيا لقرطبة .

ان محاولة التوفيق بين هذه الروايات قضية صعبة ، الا اذا كان من الممكن القول بأن من نسب فتح المدينة الى طارق ، لم يكن يقصد قيامه شخصيا بهذا الفتح وانما المقصد هو أن كل الأعمال التي قامت بها الجيوش الخاضعة له تمت تحت امرته وبموافقته ومن ثم تنسب اليه وعلى ذلك فان من قال بأن طارقا هو الذي فتحها ، يقصد انه هو الذي أمر بفتحها وان الذي تولى هو مغيث الومي .

اما مكانة المدينة ، فان اجماع المؤرخين قد قام على أنها كانت ولاية هامة اما عاصمة المملكة فقد كانت طليطلة ، ولعل اللبس في كونها العاصمة عند بعض المؤرخين أنها أصبحت العاصمة الاسلامية ، وأنها قد وصلت الى درجة عالية من الرقي والتقدم في العهد الاسلامي .

هذه هي بعض الاختلافات في قضايا فتح الأندلس أردت فقط طرحها للنقاش والمجادلة لعلنا نصل الى الحقيقة .